القيم المركزية في تنشئة المرأة الموصلية
دراسة سيوسيوانثروبولوجية-

د. خليل محمد الخالدي*

ملخص البحث:

يتضح لنا مما تقدم بيانه من سمات التنشئة الاجتماعية واهدافها ووسائلها ومرتكزاتها من القيم والاعراف والنماذج السلوكية، مبلغ اهمية هذه العملية الاجتماعية في حياتنا، وفي تحديد ملامح الشخصية في جانبيها النفسي والسلوكي، فضلاً عن دورها في تحديد مسار حياتنا الاجتماعية من لحظة الولادة الى لحظة الممات، اذ ان هذه العملية لا ينتهي دورها عند فترة محدودة من عمر الانسان، انما هي عملية متواصلة تواكب الانسان في مختلف مراحل حياته.

ان البحث حاول تبيان طبيعة التنشئة الاجتماعية في مدينة الموصل بكل ابعادها ومدلولاتها ومفاهيمها، واهم القيم المركزية التي تركز عليها هذه العملية في سياق التنظيم الاجتماعي لهذا المجتمع.

كما تم التاكيد بوجود نسقين للتنشئة الاجتماعية احدهما خاص بالذكور وله سياقاته الاجتماعية والاخر خاص بالاناث وله سياقاته الاجتماعية واساليبه التربوية التي قد تلتقي في جوانب معينة وتختلف في جوانب اخرى.

وهذا ما حاولنا اثباته من خلال الاهداف المطروحة في هذه الدراسة. ونعتقد انها تحققت بقدر ما، وعلى المستويات المحددة في اطارها.

The center values of mosulein women's socialization

This study try to show the nature of mosul city, and concentrated the concept and the most important values.

Which dominated on the society of mosul, the study also recognized tow types of socialization.

One's related to the male's and other to the female's in the frame of social organization of mosul society.

* استاذ مساعد/ قسم علم الاجتماع/ كلية الاداب.

المقدمـة:

تعد مدينة الموصل من المدن العراقية المهمة في التركيب الاجتماعي لهذا المجتمع، وعبر مختلف مراحل تطوره التاريخي والحضاري، لما كان لها من دور بارز، في مجمل حركة العراق وتحوله الحضاري، فضلاً عن ذلك فان هذه المدينة تميزت بخصائص اجتماعية وثقافية معينة، تركت بصماتها وآثارها على طبيعة التنظيم الاجتماعي لهذه المدينة، مما كان سبباً مهما في نشأة أنماط اجتماعية، ونماذج سلوكية، وأخرى قيمية، تجسدت في بنيتها الاجتماعية والتنظيمية.

إن هذه الدراسة حاولت تسليط الأضواء على طبيعة عمليات التنشئة الاجتماعية، والإعداد الاجتماعي في هذه المدينة. من حيث طبيعتها وأهدافها وسماتها. لمعرفة آليات هذه العملية ومتضمناتها القيمية والسلوكية بوصف هذه العملية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتكوين ملامح الشخصية ومحدداتها الاجتماعية والثقافية في هذا المجتمع.

إذ كما يؤكد الأنثروبولوجيون والاجتماعيون أن لكل مجتمع طراز خاص من عمليات التنشئة الاجتماعية socialization والإعداد الاجتماعي، بصرف النظر عن درجة رقيه الحضاري، وبالتالي فان هذا النمط الخاص من الإعداد الاجتماعي، إنما ينعكس على طبيعة المجتمع وهويته الثقافية التي تميزه عن غيره. ما يظفي عليه خصوصيات اجتماعية وثقافية معينة، تتجسد في انساقه القيمية والسلوكية.

فهل يمكننا القول بوجود نسق خاص من التنشئة الاجتماعية في مدينة الموصل يميزها عن سواها من المدن ؟ وان كان الجواب بنعم، فما متضمناته ومرتكزاته الجوهرية ؟ وما القيم المركزية في نسق تنشئة المرأة الموصلية ؟.

إن الدراسة جاءت لتعالج هذه التساؤلات من خلال، أربعة مباحث أساسية، فالمبحث الأول تضمن الإطار المنهجي للدراسة، في حين اختص المبحث الثاني في تبيان طبيعة الأسرة الموصلية، فيما اهتم الثالث في إبراز سمات التنشئة الاجتماعية في الموصل. فيما اهتم المبحث الرابع في الحديث عن أهم القيم المركزية في تنشئة المرأة الموصلية، فضلاً عن الخلاصة التي احتوت أهم نتائج الدراسة.

المبحث الأول: الإطار المنهجي للبحث

أولا: مشكلة البحث:

لا شك أن لكل مجتمع من المجتمعات البشرية أسلوبه ومنهجه الخاص في عمليات الإعداد الاجتماعي والنفسي والمهني، الذي يتجسد في بنائه الثقافي والاجتماعي – Socio Cultural structural وفي أنماطه السلوكية والأخلاقية.

الأمر الذي جعل المجتمعات البشرية تتباين فيما بينها وتختلف من حيث عمليات الإعداد والتأهيل الاجتماعي، التي تترسخ في إطار عملية التنشئة الاجتماعية Socialization Proces، فضلا عن ذلك فقد تتفاوت هذه الأساليب بين أجزاء المجتمع الواحد عن بعضها البعض الآخر، طبقا لتعدد وتنوع الثقافات في المجتمع، فيما نطلق عليه سوسيولوجيا بالثقافات الفرعية – Sub Culture.

هذه الثقافات التي قد تتنوع على أساس طبقي عمودي أو أفقي أو قطاعي Saction أو ربما اثني أو ديني أو قومي، وما الى ذلك من تصانيف يمكن أن نشخصها على الخارطة الاجتماعية لسكان البلد الواحد.

ووفقاً لذلك قد تختلف أساليب الحياة ونظمها من منطقة الى أخرى أو من مدينة الى أخرى أو من إقليم الى آخر، طبقاً للمؤثرات الايكولوجية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

هذا الكلام يدفعنا الى القول بوجود خصوصيات ثقافية تمتاز بها كل مدينة أو منطقة، تمخضت عن طبيعة الأحداث التاريخية والسياسية والجغرافية التي مرت بها هذه المدينة. مما جعلها تنفرد بسمات حضارية لا تتوافر في غيرها من المدن، وهذا ما ينطبق على مدينة الموصل ذات الموقع الستراتيجي والعمق الحضاري الضارب في القدم، بوصفها الوريث الشرعي للحضارة الآشورية.

فضلا عن ذلك فان هذه المدينة تميزت ببنيتها الاجتماعية والثقافية والمتعددة والمتنوعة، مما جعلها بودقة تتصهر فيها كثير من الثقافات الفرعية في إطار ثقافة كلية Whol Culture. تتعايش فيها كل الاقليات الاثنية والقومية من عرب وكرد وتركمان، ومسلمين ومسيحيين ردحاً طويلاً من الزمن في وفاق وسلام وتضامن اجتماعي عظيم قلّ نظيره في المجتمعات أو المدن الأخرى.

إن هذا البحث يحاول تحديد سمات التنشئة الاجتماعية الموصلية من خلال عرض سياقاتها القيمية والأخلاقية، ومضامينها الاجتماعية والثقافية التي تتمحور حول بعض القيم المركزية Central Valuse.

كما يسعى البحث بدرجة أخص في التركيز على عمليات التنشئة الاجتماعية وأساليبها التي تخضع لها المرأة الموصلية في دورة حياتها ؟ التي يمكن القول أنها خضعت لنسق ثقافي واجتماعي يختلف عن غيرها من المدن العراقية، من حيث طبيعة القيم الاجتماعية المركزية التي تؤكدها هذه المدينة كمرتكزات جوهرية في عملية التنشئة والإعداد الاجتماعي للأنثى، وتعد هذه ابرز التساؤلات التي ينطلق منها البحث في تبيان ماهية هذه الأساليب، وماهية القيم المفضلة في دليل تنشئة المرأة الموصلية ؟

ثانيا: أهمية البحث:

إن الحديث عن عملية التنشئة الاجتماعية Socialization وأساليبها وأنماطها وأهدافها، ليس بالحديث الجديد أو المبتكر، الذي لم يسبق للباحثين والمختصين من الخوض فيه. إنما الذي يحرك هذا الموضوع ويضفي عليه الحيوية والدينامية، هي التفاتتنا الى جانب يكاد يكون مهملاً الى زمن قريب ولم تنتبه اليه الدراسات الاجتماعية والنفسية في هذه المحافظة، بصورة مباشرة، ما عدا بعض الدراسات والاطروحات الجامعية، في جوانبها الشمولية وحسب.

في حين أن دراستنا جاءت فضلاً عن شموليتها في معالجة قضية التنشئة الاجتماعية الموصلية، فقد ركزت بدرجة عالية في إبراز أسلوب التنشئة الخاص بالمرأة الموصلية، من حيث خصائصه وأهدافه واهم القيم المحورية في هذا الأسلوب أو المنهج التربوي.

لذا تتجلى أهمية البحث من هذا المنطلق، الذي سيعالج هذه العملية الاجتماعية البالغة الأهمية، وهي التي يتوقف عليها مستقبل الفرد ونمط الشخصية اجتماعياً ومهنياً. إذ أن أي دور اجتماعي Social role سيمارسه الفرد في المستقبل يستند على منهجية التنشئة الاجتماعية وابرز الموجهات القيمية Value orientationalفي ظل هذا النمط Pattern.

كما لا تخفى علينا الأهمية العلمية النظرية والتطبيقية لهذا النمط من الدراسات الذي يدخل في مفاصل وميادين حيوية في كافة مجالات المجتمع المؤسسية وغير المؤسسية، فضلاً عن ما تعكسه من حقائق واستنتاجات تؤكد طبيعة التنشئة الاجتماعية في هذه المدينة من حيث آلياتها وأهدافها ومضامينها الاجتماعية والثقافية.

ثالثا: أهداف البحث:

يسعى البحث الى تحقيق عدة أهداف لعل أبرزها ما يأتي:-

١. التعرف على طبيعة التنشئة الاجتماعية في مدينة الموصل.

٢. تحديد سماتها وأهدافها.

٣. التعرف على مظاهر وأساليب تنشئة المرأة الموصلية.

٤. تحديد أهم القيم المركزية في النسق الثقافي الموصلي.

رابعا:ـ منهج البحث:

كل بحث أو دراسة لابد أن تقوم وفقاً لمنهج علمي، أي إطار نظري تستند عليه هذه الدراسة في جميع مراحلها وجوانبها، وإلا فالدراسة تكاد تكون عملاً عشوائياً وعفوياً لا يخضع لشروط البحث العلمي الأكاديمي، الذي يخضع الى جملة من الاعتبارات والقيود المنهجية والعلمية التي تحكم مسارات العمل من أوله الى آخره، مما تمكن الباحث من تحقيق أهداف دراسته، وفقاً لمخطط البحث الذي صممه الباحث منذ لحظة البدء في العمل.

لذا فان هذه الدراسة تستعين ببعض من مناهج البحث الاجتماعي والأنثروبولوجي، لعل أبرزها المنهاج التاريخي Historical method الذي أفادنا في كشف أهم القيم الاجتماعية الراسخة في النسق الحضاري لهذه المدينة، كما استعانت هذه الدراسة بالمنهج الأنثروبولوجي Anthropological method بشكل مكثف من خلال آلياته الأساسية في الدراسة والبحث، كالإقامة الميدانية والدراسة الحقلية، والملاحظة، والملاحظة بالمشاركة، التي أفادتنا بشكل كبير في إستقاء وتمحيص كثير من البيانات والمعلومات، فضلا عن الإفادة من المقابلةinterview، في جمع كثير من المعلومات والحقائق حول مجتمع البحث.

كما استفاد الباحث من المنهاج المقارن comparative method في هذه الدراسة، من خلال تمييز نسقين للتنشئة أحدهما خاص بالذكور والآخر خاص بالإناث، فجرت المقارنة لتبيان ابرز القيم الاجتماعية في دليل التنشئة الاجتماعية الموصلية.

خامسا:ـ تحديد مفاهيم البحث:

غالباً ما يصار في كل دراسة علمية الى تحديد أهم المفاهيم الأساسية فيها، ثم تعريفها وتوضيح مضامينها ومدلولاتها التي تؤكدها الدراسة، وتتبناها، لمنع الالتباس الذي ربما يحصل من تكرار بعض المعاني والألفاظ المتداولة في الدراسة، لذا يصار الى تعريفها نظرياً وإجرائياً وفقاً لمقاصد الدراسة، وفيما يأتي سنوضح بعضاً من هذه المفاهيم.

أولا:ـ القيم والقيم المركزية: values and centralization values

إن مفهوم القيم في المنظور الاجتماعي والأنثروبولوجي، يشير الى القضايا التي توجه تفكير الأفراد والجماعات وافعالهم في ثقافة معينة، أي إنها تصورات الأفراد والجماعات للأمور المثالية المرغوب فيها، والتي تتحكم بعملية الاختيار بين الأساليب والوسائل المتاحة لتحقيق أهداف معينة في الإطار العام للثقافة التي ينتمي اليها أولئك الأفراد وتلك الجماعات(١).

وكما تعرف بأنها ضوابط سلوكية تؤثر في أفكار ومعتقدات الإنسان وهذه الضوابط تضع سلوك الإنسان في قالب معين، يتماشى مع ما يريده المجتمع ويفضله(٢).

أما القيم المركزية centralization، فتشير في مفهومنا الى ابرز القيم الاجتماعية في النسق الاجتماعي والثقافي لذلك المجتمع، ولذا تعد مرتكزات جوهرية تدور حولها بقية القيم والعادات والنماذج السلوكية، لتؤلف كلاً متكاملاً في المنظومة القيمية لدى أولئك الأفراد وتلك الجماعات. كقولنا مثلا أن قيمة الشرف تعد قيمة مركزية في الثقافة العربية الإسلامية، بينما لا تحظى بنفس القيمة والمكانة في الثقافة الغربية مثلا.

ثانيا: التنشئة الاجتماعية Socialization

يعرفها العالم ميشيل دنكن بأنها عملية تلقين الفرد قيم ومقاييس ومفاهيم مجتمعه الذي يعيش فيه، بحيث يصبح مهيئاً لاشغال مجموعة أدوار تحدد نمط سلوكه اليومي(٣).

والتنشئة الاجتماعية تعني إعداد الفرد منذ ولادته لان يكون كائناً اجتماعياً وعضواً في مجتمع معين. والأسرة هي أول بيئة تتولى هذا الإعداد، فهي تستقبل المولود وتحيط به وتروضه على آداب السلوك الاجتماعي، وتعلمه لغة قومه، وتراثهم الثقافي من عادات وتقاليد وسنن اجتماعية وغيرها(٤).

في حين يرى العالم تالكوت بارسونز T. Parsons إن التنشئة الاجتماعية هي عملية تشرب ثقافة المجتمع الذي يولد فيه الطفل، وخاصة الجزء المهم من هذه الثقافة الذي يتكون من أنماط القيم values pattern ، التي هي في نفس الوقت منظمة لانماط المجتمع(٥).

بينما يؤكد العالم الأنثروبولوجي كلايد كلاكهون K.Klkuhon أن التنشئة الاجتماعية في أي ثقافة هي عملية نقل السلوك اليومي في المواقف المحددة والمتنوعة(٦).

ووفقا لذلك نرى أن التنشئة الاجتماعية هي عملية اجتماعية بالغة الأهمية في المجتمع، إذ عليها وبها يحافظ المجتمع على هويته وخصوصيته الاجتماعية والثقافية، وعلى رموزه ومثله القيمية والأخلاقية والسلوكية من جيل الى آخر.

المبحث الثاني: الأسرة الموصلية والتنشئة الاجتماعية
Muslien family & socialization

أولا: طبيعة الأسرة

لا ريب أن الأسرة تعد المحضن الأول من محاضن عملية التنشئة الاجتماعية في معظم المجتمعات البشرية، كونها البيئة الاجتماعية الأولى التي تسيطر على قواعد التنشئة وعملياتها الأساسية، من لحظة الولادة وحتى مرحلة النضج والبلوغ adult .

من هنا جاء توكيدنا على دور الأسرة بوصفها تلك المنظومة التي تؤدي اغلب الوظائف الاجتماعية التي تتلخص فيها أهداف المجتمع العامة(٧).

فإذا كان للأسرة Family دوراً كبيراً ومهماً في عمليات التنشئة وأساليب تنفيذها، فإنها تكاد تكون الجماعة الاجتماعية الأوفر حظاً في القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية، في إطار مدينة الموصل. لما لها من دور عظيم في ترسيخ قيم التنشئة وأنماطها في شخصية الفرد الموصلي.

وكما يؤكد السوسيولوجيون فان الأسرة جماعة اجتماعية تتكون من فردين أو اكثر يرتبطون بعلاقة دموية عن طريق الزواج أو التبني، ويعيشون سوية، فالأسرة هي الجماعة الأولية Primary group التي تساهم في بناء شخصية الفرد(٨).

ووفقاً لذلك فقد مارست الأسرة الموصلية دوراً كبيراً في تأصيل وديمومة كثير من القيم الاجتماعية social values والنماذج السلوكية والأخلاقية في طبيعة التكوين الاجتماعي لهذه المدينة. فضلا عن ذلك فمن " حلال شبكة العلاقات الاجتماعية التي تستمد وجودها من الأسرة، تتبلور كثيراً من الأطر"(٩) التربوية والمهنية التي تترسخ في إطار عملية الإعداد الاجتماعي والمهني للفرد الموصلي ذكراً كان أم أنثى.

فالأسرة الموصلية شانها شأن الأسرة العربية فهي أسرة أبوية تتميز بان للرجل سلطة كبيرة على أفراد أسرته، ويليه في المرتبة هذه ابنه البكر الذي يمارس ذات الدور في حالة غياب الأب. أما من حيث نمط الأسرة وشكلها في هذا المجتمع. فيسود نموذجين أساسيين، هما الأسرة الممتدة extended family التي تتميز بكبر حجمها فهي تضم جيل الآباء والأبناء المتزوجين والأحفاد، أما الأنموذج الثاني فهو الأسرة النواة Nuclear Family. التي تتميز بصغر بنائها فهي تتكون من الوالدين وابنائهم فحسب. ومن المفيد القول أن هذين النموذجان الأكثر انتشاراً في هذه المدينة، غير أن المؤشرات الاجتماعية تؤكد أن الأسرة الموصلية تتجه الى أنموذج النواة بحكم انتشار عوامل الحضرية والتصنيع والتحديث التي طغت في المدينة.

ونلحظ أن الأسرة الموصلية تتميز بشدة تماسكها بالروابط الأسرية والرحمية والاجتماعية، وهي ذات طابع أبوي، إذ كان للأب سلطة غير محددة في تدبير شؤون المنزل، فجميع أفراد أسرته يحترمونه وينفذون أوامره، بكل إقدام واخلاص(١٠).

أما الام فهي الركن الثاني في الأسرة فهي المسؤولة عن إدارة أعمال وشؤون البيت مع بناتها، وتدربهم على فنون الطبخ والغزل والنسيج، إذ كان البيت الموصلي سابقاً أشبه بمصنع صغير ينتج ما تحتاجه الأسرة من الملابس وأثاث(١١).

ومن التقاليد العريقة التي ما زالت في الأسرة الموصلية، أن الأبناء كانوا يزاولون المهنة التي يزاولها آباؤهم في سن مبكرة، إذ يذهب الابن مع أبيه الى محل عمله ليتدرب على الأعمال أو الصنعة التي يحترفها والده(١٢).

وهذا النمط من الإعداد يخضع له كلا الجنسين الذكور والإناث ولكن الذكر يوجه الى ممارسة الأعمال الخارجية، أو المهنة التي يمارسها أبوه أو جده، في حين أن البنت تحاول تقليد أمها في عملها أو صنعتها التي تحسنها، كأن تكون والدتها خياطة أو نقاشة، فهي تحاول أن تتقن هذه الصنعة، فضلا عن مساعدة أمها في أعمال المنزل وشؤونه المختلفة.

المبحث الثالث: سمات التنشئة الاجتماعية في الموصل
Trates of mosulien sociolization

إن عملية التنشئة الاجتماعية هي عملية واسعة ومتشعبة وذات أهداف وغايات عديدة منها الإعداد الاجتماعي، والضبط الاجتماعي، والتكيف مع البيئة الاجتماعية، فهي عملية إكساب وتزويد الفرد بالمهارات والخبرات والعادات الضرورية، ومختلف أنماط السلوك والمعايير والقيم والقواعد الاجتماعية التي يؤكدها المجتمع(١٣).

لذا فان طابع الشخصية في أي مجتمع وثقافة، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأنماط وأساليب التنشئة الاجتماعية السائدة فيه، بوصفها العملية الاجتماعية المسؤولة عن نقل منظومة القيم والقواعد والمعايير الاجتماعية عبر الأجيال المتلاحقة، من خلال قنواتها وتكويناتها الاجتماعية المعهودة في المجتمع، وترسيخها في نفوس الأفراد ومظاهر حياتهم المختلفة.

وبهذه الآلية الاجتماعية يتأسس منهج واضح من التنظيم الاجتماعي social organization يتميز بخصائص اجتماعية وثقافية متميزة عن غيره، فيسعى التنظيم جاهداً الى تحقيق أهدافه وغاياته، فضلاً عن ممارسة أدواره ووظائفه المناطة به.

إن مدينة الموصل تتميز بتنظيم اجتماعي يكاد يكون فريداً من نوعه من حيث بنيته وملامحه العامة، ومن حيث طائفة القيم والقواعد والأساليب التي يحرص على نشرها وديمومتها في المجتمع الموصلي.

وبناء على ذلك فان نمط التنشئة بات خاضعاً في عملياته وأهدافه وفقاً للمتغيرات الاجتماعية المركزية في سياق هذا التنظيم، وهذا ما يبدو جلياً في الأسرة الموصلية اذ تحرص كل الحرص على تربية أبنائها وتعليمهم، وفق التقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الموصلي، فكان الفرد يغار على سمعة أسرته، ويتجنب الأعمال المستهجنة التي تسيء الى سمعة أسرته، مهما كلفه ذلك من التضحيات(١٤).

فضلا عن ذلك فان الأسرة الموصلية، شديدة التمسك بالتقاليد الموروثة عن الأجداد، وإذا ما شذ أحد أفراد الأسرة عن هذه التقاليد وخالفها، فان جميع أفراد الأسرة يتبرءون منه وتقصيه الأسرة عن حضيرتها.

فالأسرة الموصلية مقتصدة الى ابعد الحدود، وتسعى الى إنماء ثروتها وتحسين ظروف معيشتها، قبل أن تفكر في الكماليات وتبذير الأموال في أمور تافهة(١٥).

وهكذا نرى أن نمط التنشئة الاجتماعية السائد في هذا المجتمع يسعى الى تكرار هذه النماذج السلوكية عبر وسائله وآلياته المجتمعية المختلفة، سواء في الأسرة أو المحلة أو محيط العمل، أو جماعات المهن، والحرف والصنائع، فكل جماعة من هذه الجماعات الاجتماعية لها نصيب واضح في عملية الإعداد الاجتماعي والمهني، فقد يزداد هذا الدور في بعضها وقد ينقص في البعض الآخر، بقدر قرب الفرد منها، وارتباطه بها.

ويظهر هذا الدور بشكل واضح في البناء الأسري من خلال سيطرته الكبيرة على مختلف مراحل إعداد الفرد، حتى بعد انخراطه في هيئات المجتمع ومؤسساته، فدور الأسرة لا يفتر ولا ينتهي عند حد معين.

كما يظهر كذلك دور جماعات الحرف والمهن، إذ كان لنظام الطوائف المهنية في هذه المدينة دوراً كبيراً في إعداد أجيال كثيرة تمارس أنواعاً مختلفة من المهن والحرف التي ترسخت في كيان المجتمع الموصلي، حتى غدا مجتمعاً مهنياً وعملياً في سائر مجالات حياته.

فالموصلي لا يكل ولا يمل من العمل والجدّ والمثابرة من اجل التفوق في عمله أو صنعته، بين أقرانه أو في محيط عمله. فغالباً ما تجده منهمكاً في عمله سواء في ورشته أو حتى

في بيته الصغير، الذي لم يسلم من آثار مهنته، في حياته. وبهذه المزايا توافرت للفرد الموصلي فرص التألق والإبداع والتفوق على أقرانه من المناطق الأخرى، سواء كان ذلك في مجالات العمل أو العلم أو الإدارة وقيادة المؤسسات، والتنظيمات الاجتماعية المختلفة سواء الرسمية أم غير الرسمية.

وهذا ما تؤكد الوقائع والملاحظات الميدانية، التي لمسناها من خلال احتكاكنا أو تعايشنا مع هذه النماذج، التي تميزت بنجاحها وقدرتها على العطاء والإبداع، سيما في الجانب العسكري والمؤسسي.

إذ يتميز نسق التنشئة الموصلية بحرصه الشديد على نقل وتمرير هذه الطائفة من القيم الاجتماعية والتقاليد المهنية، والنماذج السلوكية، عبر آلياته وقنواته المختلفة. من جيل الى آخر، وهكذا حافظ هذا النسق الاجتماعي social system على بنيته وخصوصيته الثقافية المذكورة في التنظيم الاجتماعي العام في هذا المجتمع.

ومن اللافت للنظر أن الأستاذ احمد الصوفي رحمه الله نبه الى هذه المسألة منذ زمن مبكر في دراسته الفريدة من خطط الموصل في جزئيه الأول والثاني، إذ بين في دراسته التي أجراها عام ١٩٥٣. أهم المرتكزات في نسق التنشئة الاجتماعية socialization system في الموصل بقوله أنها تؤكد " قيم الجد والصدق بالقول والعمل، والوفاء بالعهود ومعاونة الفقير، واحترام الصديق، والمشاركة في أحزانه وأفراحه، لذلك قلما كان الفرد الموصلي يكذب أو يهزأ، لانه يؤمن أن الجد والصدق والاستقامة هي القيم الأساسية التي تؤدي الى سعادة الفرد ونجاحه في الحياة "(١٦).

فضلاً عن ذلك فان الأستاذ المرحوم سعيد الديوه جي مؤرخ الموصل رحمه الله، كان من المنهمكين في دراسة هذه المدينة سواء من الناحية التاريخية أم من الناحية الاجتماعية في دراسات عدة وكثيرة، في إبراز خصوصية هذه المدينة الاجتماعية والحضارية. ففي دراسته عن تقاليد الزواج في الموصل يشير الى ذات القيم التي ركز عليها سلفه احمد الصوفي فيقول " ويحرص الوالدان على تعليم أولادهما وتوجيههم الى الحياة العملية، فإذا كبر الطفل أرسلوه الى الملا ليتعلم القراءة والكتابة، والقرآن الكريم، ومبادئ الدين، فإذا شذ اخذ يتردد الى عمل والده ليخلف أباه في عمله ومهنته، ويعتمد على نفسه في كسب الرزق..."(١٧).

كما تؤكد ذلك دراسة أكاديمية حديثة أجريت حول " الأسرة الموصلية " الى ما ذهبت اليه الدراستان السابقتان، ففي إطار حديثه عن وظائف الأسرة، أكد الباحث على وظيفة التنشئة الاجتماعية، وبين أن الأسرة الموصلية تتكفل بتعليم أبنائها ذكوراً وإناثاً المهن التي يزاولها الآباء والأمهات، لضمان استقرار مستواهم الاقتصادي في حياتهم، كما أنها تحرص على تعليم أبنائها الثقافة السائدة في المجتمع الموصلي(١٨).

ووفقاً لذلك فان هذه القيم والمعايير الاجتماعية، تعد المرتكزات الجوهرية في نسق التنشئة الاجتماعية الموصلية، التي تحاول غرسها في شخصية الفرد الموصلي. فالتنشئة الاجتماعية تعد جسراً بين الشخصية والمجتمع والثقافة، كما في المفهوم الأنثروبولوجي، لانها الوسيلة الأساسية التي تنتقل بها منظومة القيم والأنماط السلوكية والثقافية من المجتمع الى الشخصية، لتضفي عليها ملامح المجتمع وسماته الثقافية والنفسية.

فالتنشئة هي عملية إكساب " الطرق في السلوك والتفكير والشعور"(١٩). بحيث يصبح الفرد مندمجاً في مجتمعه وثقافته، أي يفكر بها ويتصرف بموجبها، لانه مدعو لان يعيش فيها، لذا وجب عليه الالتزام بها والانصياع التام لرموزها ومرتكزاتها، بحيث تغدو جزءاً من شخصيته Personality.

ومن المفيد كذلك الإشارة الى دراسة ميدانية أجراها الباحث حول " خصائص المجتمع الموصلي"(٢٠).

توصلت الى نتائج مماثلة لهذه العينة من الدراسات، ولعل ابرز ما جاء فيها من نتائج هي أن نسق التنشئة يؤكد على ترسيخ القيم التالية في الشخصية الموصلية وعلى النحو الآتي " قيم الحرص والجدية بمتوسط حسابي قدره ٢,٧٧، ومُحبة للعمل بمتوسط قدره ٢,٧٠، وقيم الضبط والتنظيم بمتوسط قدره ٢,٧٣، وقيم التحسب للمستقبل بمتوسط قدره ٢,٧٠، وانه مجتمع محافظ على القيم بمتوسط قدره ٢,٦٦، وانه يؤمن بأهمية الاقتصاد في الحياة بمتوسط قدره ٢,٢٧، وانه مجتمع يكره التبذير ويميل الى التدبير المتوسط قدره ٢,٩٢، وانه يحترم العمل والمهنة بمتوسط قدره ٢,٨٢ " وغيرها من القيم والمرتكزات الاجتماعية والاقتصادية في هذا النسق.

المبحث الرابع: القيم المركزية في تنشئة المرأة الموصلية

قبل الخوض في تحديد القواعد والركائز الأساسية في تنشئة المرأة الموصلية، علينا تبيان مصادر هذه القيم والقواعد، وكيفية انتقالها وتجذرها في المجتمع الموصلي، وكيف ترسخت في نماذج قيمية وسلوكية أضحت جزءاً أساسياً في النسق الاجتماعي والثقافي لهذا المجتمع. وهل يمكننا القول بوجود نسق خاص بتنشئة الأنثى يتباين عن نسق تنشئة الذكر ؟

من حيث أساليبه وأهدافه ومتضمناته من القيم والتقاليد والأنماط السلوكية والأخلاقية ؟ وهل أن قنوات التنشئة ومصادرها واحدة ام مختلفة بالنسبة للجنسين ؟

قد يبدو للوهلة الأولى أن هناك نظاماً اجتماعياً وثقافياً عاماً يخضع له جميع أفراد المجتمع، وهي بديهية عامة تشترك فيها معظم المجتمعات البشرية، Human societies، هذا من جانب ما يطلق عليه الأنثروبولوجيون بعموميات الثقافة universals cultural التي يخضع لها جميع أفراد المجتمعات ويشتركون في عناصرها ومكوناتها.

من المعتقدات الروحية والأخلاقية والقيمية والرموز المثالية والمادية، وغيرها من الجوانب المادية والمعنوية، التي يشترك فيها افراد المجتمع في فترة زمنية وحضارية معينة.

واما الجانب الآخر من البناء الثقافي فيشتمل على الخصوصيات الثقافية specialities cultural، التي تظهر في بعض الشرائح والطبقات الاجتماعية ولا تظهر في بعضها الآخر، وهي عناصر ثقافية تميز فئات ومقاطع من ثقافة المجتمع مُنبنية على أساس اشتراك جماعة اجتماعية معينة في طائفة من الخصائص والسمات. كقولنا ثقافة الطبقة العليا وثقافة الطبقة الوسطى، مثلاً، أو ثقافة العمال، وثقافة الفلاحين أو ثقافة أهل المدن وثقافة الأرياف، وتتحلل هذه الثقافات الى ثقافات قطاعية ومقطعية في المجتمع، كقولنا ثقافة الرجال وثقافة النساء، أو ثقافة الطلاب، وثقافة الأطباء أو المدرسين، أو ثقافة الكبار وثقافة الشباب.

وهكذا يمكننا أن نجد تقسيمات مقطعية عديدة ومتنوعة في ثقافة المجتمع الواحد، وهي ليست بدعاً من القول، إنما هي ظاهرة اجتماعية واقعة في جميع الثقافات والحضارات البشرية، بغض النظر عن درجة رقيها أو بدائيتها.

بيد أن الأنثروبولوجيون يشبهون الثقافة بلفيفة من الخيوط المتشابكة والمتداخلة التي يصعب فك ارتباطاتها عن بعضها البعض الآخر، ولكن مهما يكن من آمر فان كل ثقافة تتمحور حول بعض المركبات والعناصر الثقافية، كما أكدت ذلك العالمة الأنثروبولوجية الشهيرة روث بندكت Ruth Bendict بالقول بنظرية التكامل الثقافي، cultural integration، التي ترى بأن

الثقافة تتمركز حول مركب ثقافي أساسي، تدور عليه مختلف أجزاء الثقافة. هذه النظرية العلمية توصلت اليها من جراء دراستها الميدانية على بعض القبائل البدائية، كقبيلتي كواكيوتل والبيبلو التي وجدت أن ثقافة هذه القبائل تتسم بخاصية مركزية تميزها عن غيرها، فوجدت مثلاً أن ثقافة البيوبلو تميل الى (الاعتدال) في كل شيء، في حين أن ثقافة قبيلة الكواكيوتل ترتكز على مبدأ (التطرف) في أمور حياتهم.

ومن الملاحظ أن روث بندكت افترضت أن الثقافة جميعها تتمحور في مركب ثقافي واحد، أي على قيمة اجتماعية واحدة أو معيار اجتماعي واحد، وبالتالي تمثل نزعة مركزية تسيطر على عناصر ومكونات الثقافة جميعها.

يبدو أن هذا الرأي لا يخلو من مبالغة في نظرته لمحتوى الثقافة وبنائها، إذ من الصعوبة بمكان القول أن كل مركبات ومتضمنات الثقافة المتعددة والمتنوعة تخضع لسيادة عنصر مركزي واحد، وبالتالي هو الذي يضفي على الثقافة شكلها وملامحها العامة.

ويمكننا أن نعزز هذا الرأي مثلاً بنظرة بسيطة الى بناء الثقافة العربية لنحدد عدداً كبيراً من القيم المركزية والمركبات الثقافية التي حددت ملامح هذه الثقافة وشكلها الى يومنا هذا، وعلى النحو الآتي:

" الشجاعة، الكرم – المروءة، الفروسية، الدخالة، الثأر، الإيثار، التضحية، الوفاء، الأمانة، الصدق، العدل، الشرف، والعفة، والارتباط بالأرض، والعقيدة والدين...الخ" وغيرها من القيم الاجتماعية والقواعد الخلقية، التي تميز هذه الثقافة مثلاً، فمن سياق العرض، نجد انه من الصعب القول أن الثقافة العربية هي ثقافة شجاعة فحسب أو ثقافة كرم فحسب، إنما هي مركب من كل هذه السمات التي أضفت عليها هويتها وشخصيتها الحضارية على مر العصور.

ويقترب رأينا هذا من رأي العالم الأمريكي موريس اوبلر Murise opler الذي يرى أن الثقافة لا تقوم على مركب واحد، إنما تقوم على عدة مركبات اسماها (موضوعات) Themes، ويرى انه يمكننا أن تحدد ذلك من خلال مشاهداتنا ومعايشتنا لثقافة أي بلد، من خلال ما يدور فيها من مواضيع، وأمور أو قيم، لنلاحظ درجة تكرار هذه الموضوعات، حينئذ يمكننا أن نقرر بأن هذه الثقافة تدور حول طائفة من الموضوعات أو المركبات، وليس موضوع واحد مركزي كما ذهبت الى ذلك العالمة الأمريكية* Ruth Bendict .

* للمزيد ينظر، د. قيس النوري، المدخل الى علم الإنسان.

من هذه المقدمة التحليلية ننطلق في تحليل نسق التنشئة الاجتماعية الذي يعد جزءاً أساسياً من أجزاء النسق الاجتماعي الثقافي في المجتمع الموصلي، بعد أن بينا طبيعة القيم والمرتكزات الاجتماعية التي يدعمها هذا النظام ويعززها في ثقافة المجتمع رجالاً ونساءاً، علينا أن نبين أهم المرتكزات القيمية في إعداد وتنشئة المرأة الموصلية.

إن الأسرة الموصلية شديدة التمسك بالتقاليد الموروثة عن الأجداد وهي تحاول المحافظة على ديمومة واستمرارية هذه التقاليد التربوية من جيل الى آخر.

فكان معظم الآباء والأمهات يعتقدون أن تربية الطفل تتطلب استخدام القسوة والشدة باستمرار، لهذا كانوا يستخدمون " الضرب والتوبيخ " بشكل واضح لاعتقادهم بكونه الأسلوب الأمثل لتربية الأولاد تربية صالحة، وتجعلهم مشبعين بالأخلاق الحميدة والصدق والإخلاص ومعاونة الصغير واحترام الكبير(٢١).

إن هذه الأساليب تستخدم للذكور والإناث معاً، أما الأساليب التقليدية التي كانت متبعة في إعداد البنت وتأهيلها لدورة الحياة فيقول الأستاذ الديوه جي " إذ بلغت البنت سن الخامسة أرسلتها أمها الى الملاية، تعلمها القرآن الكريم ومبادئ الدين، ثم بعدها ترسلها الى "الاستادي" الأستاذة – مع بنات المحلة فتتعلم عندها الخياطة والنقش والتطريز والتخريم، وهذه الأمور تؤهلها أن تعد جهاز زواجها بنفسها"(٢٢).

وإذا عادت الى الدار فان أمها توجهها الى كنس مرافق الدار، وشطف السرداب ومسح الشبابيك، ثم الى العجن والخبز ومساعدة أمها في الطبخ، بحيث تكون في المستقبل (أم بيت): عجاني خبازي طباخة غزّالي خياطة نقاشي، تتقن كافة أعمال الدار، لتسعد زوجها وتعينه في تهيئة أثاث البيت وثياب العائلة"(٢٣).

لذلك وردت أمثلة كثيرة في هذا المجتمع مركوزه في نسقه القيمي والسلوكي من أمثال وحكم تؤكد هذه العناصر والمرتكزات الاجتماعية منها بفضل المواصلة " البنت العاقلة المدبرة الأصيلة، المصنصلة، على غيرها حتى ولو كانت فقيرة الحال، كما أن أهل البنت يفضلون الأصيل الفقير الحال على الغني غير الأصيل، ويقولون " خذ الأصيل ونام على الحصير"(٢٤).

ويقول لسان حالهم أيضاً "خذ بنت العمال ولا تأخذ بنت المال" لان بنت العمال تعمل وتعمر، وبنت المال تكسل وتبذر، وقولهم "زوج بنتك بصاحب صنعة لا بصاحب قلعة " وقولهم " إن الصنعة خاتم ذهب"(٢٥).

يتبين لنا من هذه الأقوال والأمثال والحكم مبلغ التركيز على الجوانب العملية والمادية، التي هي عبارة عن التفضيلات القيمية والاجتماعية التي يؤكد عليها نسق التنشئة الاجتماعية.

فضلاً عن ذلك فالمرأة الموصلية (أم بيت) تقضي وقتها في تدبير شؤون دارها، والاعتناء بتربية وتوجيه أبنائها الى ما يؤهلهم في حياتهم، وهي فوق هذا تشارك في الأعمال والحرف لتساعد زوجها في الأمور المعيشة، وهي تعني بصورة خاصة بتربية بنتها وترشدها على ممارسة أعمال الدار من صغرها فتعاون أمها في تدبير أعمال البيت، كما كانت تعلمها هي أو ترسلها الى الاستادي[٢٦].

وان كانت هذه هي أساليب الأسرة التقليدية في التنشئة الاجتماعية، ولكن هذا لا يعني عدم انتقال كثير من قيمها ومتضمناتها الى الأسرة الموصلية الحديثة " النواة " بوصفها امتداد طبيعيا لنموذج الأسرة التقليدية الكبيرة، رغم حركة التغير الاجتماعي والتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في المدينة، فيما بعد ثورتي تموز ١٩٥٨، وتموز ١٩٦٨.

إذ تغيرت كثيراً من ملامح المدينة وانساقها الاجتماعية في إطار عمليات التحضير والتحديث والتصنيع، التي انتشرت وتوسعت بشكل كبير في هذه المدينة، بشكل خاص والمجتمع العراقي بشكل عام.

مما كان لها أثراً في تغيير كثيراً من العادات والتقاليد الاجتماعية، والأنماط السلوكية، المعهودة في هذا المجتمع، فمنها ما طال النسق الأسري وبالذات نسق التنشئة الاجتماعية، التي دخلت عليها متغيرات كثيرة في مفاهيمها وقنواتها وأساليبها، بفعل عملية التغير الثقافي وعمليات الاتصال والانفتاح العالمي، ما بين مجتمعاتنا اليوم وخاصة عبر ثورة الاتصالات والمعلومات، واستخدام الحاسوب والانترنيت، وشيوع الستلايت (الطبق اللاقط) عبر مختلف الفضائيات التي تحيط بنا من كل جانب.

هذا الأمر جعل من الصعب السيطرة على عمليات التنشئة ووسائلها التقليدية المعهودة كالأسرة، والمحلة، أو الجامع، المدرسة، أو جماعة العمل واللعب، وما الى ذلك، أمام هذا الضغط الهائل من مصادر وقنوات التنشئة الحديثة، إذ ظهر نوعاً من التغير الواضح في أساليب وقيم التنشئة، كأسلوب المرونة، وقيم المساواة، والتعليم، وشيوع النزعات العقلانية والفردية، والمادية، فالمرأة الموصلية، أصبحت طبيبة ومهندسة، ومدرسة، وموظفة في مختلف مؤسسات الدولة والمجتمع.

وبالرغم من هذا التحول في اتجاهات التنشئة وأساليبها، ما زالت الأسرة الموصلية، لها مركز الصدارة في هذه العملية، وهذا ما يجعلنا نكرر القول بأهمية الأسرة ودورها في هذه العملية من خلال سيطرتها على تنشئة أبنائها وتوجيههم الوجهة الاجتماعية التي تتفق مع قيم المجتمع ونظمه.

الخلاصـــة:

يتضح لنا مما تقدم بيانهُ من سمات التنشئة الاجتماعية وأهدافها ووسائلها ومرتكزاتها من القيم والأعراف والنماذج السلوكية، مبلغ أهمية هذه العملية الاجتماعية في حياتنا، وفي تحديد ملامح الشخصية في جانبيها النفسي والسلوكي، فضلاً عن دورها في تحديد مسار حياتنا الاجتماعية من لحظة الولادة الى لحظة الممات، إذ أن هذه العملية لا ينتهي دورها عند فترة محدودة من عمر الإنسان، إنما هي عملية متواصلة تواكب الإنسان في مختلف مراحل حياته.

إن البحث حاول تبيان طبيعة التنشئة الاجتماعية في مدينة الموصل بكل أبعادها ومدلولاتها ومفاهيمها، واهم القيم المركزية التي تركز عليها هذه العملية في سياق التنظيم الاجتماعي لهذا المجتمع.

كما تم التأكيد بوجود نسقين للتنشئة الاجتماعية أحدهما خاص بالذكور وله سياقاته الاجتماعية والآخر خاص بالإناث وله سياقاته الاجتماعية وأساليبه التربوية التي قد تلتقي في جوانب معينة وتختلف في جوانب أخرى.

وهذا ما حاولنا إثباته من خلال الأهداف المطروحة في هذه الدراسة. ونعتقد أنها تحققت بقدر ما، وعلى المستويات المحددة في إطارها.

المراجـــــع:

١. د. إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٥.
٢. د. إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيـــروت، لبنـــان، ١٩٩٩.
٣. احمد الصوفي، خطط الموصل، ج٢، مطبعة الإرشاد الجديدة، الموصل، ١٩٥٣.
٤. أزهر العبيدي، الموصل أيام زمان، مطبعة الراية، الموصل، ١٩٩٠.
٥. جي روشيه، المدخل الى علم الاجتماع، ط١، تعريب، مصطفى دندشلي، الـــدار العربيـــة للدراســـات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.

٦. خليل محمد الخالدي، التنشئة الاجتماعية في ناحية النمرود، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩١.
٧. د. خليل محمد الخالدي، خصائص المجتمع الموصلي، دراسة اجتماعية ميدانية، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، مركز دراسات الموصل، ٢٠٠٦.
٨. سعيد الديوه جي، تقاليد الزواج في الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل / ١٩٧٥.
٩. د. شاكر مصطفى سليم، قاموس الانثروبولوجيا، ط١، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨١.
١٠. د. قيس النوري، الأسرة مشروعاً تنموياً، سلسلة آفاق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٤.
١١. محمد محمود احمد، الأسرة الموصلية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٢.

12. Talcot، P.&، R, Bells، Family socialization andinteraction، Free، press، N,Y. printed in، U.S.A 1965، p. 17.
13. Joseph، hims. the study of soiology، Madres india، 1967.
14. young & mack، sociology and social life، third، edd American book company. 1963.

الهوامش:

١- د. شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، ط١، مطابع جامعة الكويت، الكويت ١٩٨١، ص ٢٣٠.
٢- إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ص ٥١٤.
٣- د. إحسان محمد الحسن، المصدر نفسه، ص ٢٠٩.
٤- د. إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٧٥، ص ١٨٤.

5- Talcot، p. & R, Bells، Family socialization and interaction، free press، N,Y. printed in، U.S.A. 1965، p. 17.
6- Joseph، hims. the study of sociology، midras india، 1967، p.312.

٧- د. قيس النوري، الأسرة مشروعا تنمويا، سلسلة آفاق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٤. ص ٥.

8- Young & Mack، sociology and social life، Third. edd. American book company. 1963 – p 325.

٩- د. قيس النوري، المصدر السابق نفسه، ص ٦.
١٠- احمد الصوفي، خطط الموصل، ج ٢، مطبعة الإرشاد الجديدة، الموصل، ١٩٥٣، ص ٢٩.
١١- أزهر العبيدي، الموصل أيام زمان، مطبعة الراية، الموصل، ١٩٩٠، ص ١٢٤.
١٢- احمد الصوفي، المصدر السابق نفسه، ص ٩.
١٣- خليل محمد الخالدي، التنشئة الاجتماعية في ناحية النمرود، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩١، ص ٨٤.
١٤- احمد الصوفي، خطط الموصل، مصدر سابق، ص ٢٩.
١٥- احمد الصوفي، المصدر نفسه. ص ٢٧.
١٦- احمد الصوفي، مصدر سابق، ص ٢٩.
١٧- سعيد الديوه جي، تقاليد الزواج في الموصل، مؤسسة الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٧٥، ص ٨.
١٨- محمد محمود احمد – الأسرة الموصلية، التغير في البناء والوظيفة، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الاجتماع كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص ٤٦.
١٩- جي روشيه، مدخل الى علم الاجتماع العام، ط١، تعريب مصطفى دندشلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦٥.
٢٠- للمزيد ينظر د. خليل محمد الخالدي، " خصائص المجتمع الموصلي " دراسة اجتماعية ميدانية، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، مركز دراسات الموصل، آذار ٢٠٠٦، ص ٥٨، ٦٥.
٢١- أزهر العبيدي، مصدر سابق، ص ١٩٤.
٢٢- سعيد الديوه حي، عادات وتقاليد الزواج، مصدر سابق، ص ٩.
٢٣- المصدر نفسه، ص ١١.
٢٤- المصدر نفسه، ص ١١.
٢٥- المصدر السابق نفسه ص ١١.
٢٦- محمد محمود احمد، الأسرة الموصلية، مصدر سابق، ص ٢٤٦.